

علي أحمد باكثير رائد التصور الإسلامي في الرواية العربية التاريخية

الدكتور محمد أبو بكر حميد - السعودية

ناقد وباحث ومستشار إعلامي

يعد علي أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩م) من أشهر من كتب الرواية والمسرحية في أدبنا العربي الحديث، فقد تألق نجمه سريعاً بعد هجرته إلى مصر سنة ١٩٣٤م، واستطاع خلال سنوات قليلة أن يصبح واحداً من أبرز كتّاب الرواية المسرحية في مصر، ومن أهم الأدباء العرب وأنضجهم في القرن العشرين، وذلك لغزارة إنتاجه وتنوعه ولريادته الفنية المتعددة، ولجراته في طرح قضايا أمته العربية والإسلامية في مرحلة من أخطر مراحل تاريخها الحديث، وهي مرحلة الكفاح ضد الاستعمار وتحقيق الاستقلال.

دخل علي أحمد باكثير مصر شاعراً يحلم بإمارة الشعر بعد شوقي، إلا أنه بعد التحاقه بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، تخلى عن هذا الطموح لصالح فن المسرحية. وفي الوقت نفسه الذي دلف فيه إلى حلبة المسرحية افتتح ميدان الرواية بجرأة واقتدار، وحقق نجاحاً باهراً، إذ حصد بها الجوائز في المباريات الأدبية، وقررت بعض رواياته على طلاب المدارس، وأخرجت أفلاماً للسينما.

ولكن هذا النجاح في الرواية لم يصرفه عن كتابة المسرحيات التي أعطاها جُل إنتاجه، وإجمالي نتاج باكثير في السرد الروائي ست روايات هي: (سلامة القس ١٩٤٣م) استلهم موضوعها من تاريخ القرن الأول الهجري، و(وإسلاماه ١٩٤٤م) من أحداث القرن السابع الهجري، و(ليلة النهر ١٩٤٦م) الرواية الوحيدة من التاريخ المعاصر، و(الثائر الأحمر ١٩٤٩م) من أحداث القرن الثالث الهجري، و(سيرة شجاع ١٩٥٥م) من أحداث القرن السادس الهجري، و(الفارس الجميل ١٩٦٥م) من أحداث القرن الأول الهجري،

وقصة قصيرة واحدة يتيمة هي (عودة المشتاق). ورغم قلة عدد هذه الروايات قياساً بمسرحياته، فإن باكثير الروائي كان يزاحم باكثير المسرحي، بل كان يسير موازياً له لا من حيث غزارة الإنتاج بل من حيث نوعيته فنياً ورؤيته فكرياً وتأثيره جماهيرياً.

ظهر اسم باكثير الروائي في مصر في بداية الأربعينيات من القرن العشرين، فقد كان هو ونجيب محفوظ من أوائل المنضمين للجنة النشر للجامعيين^(١) التي أسسها عبد الحميد جودة السحار سنة ١٩٤٢م لنشر أعمال الأدباء الشباب. تعاهد الزملاء الثلاثة السحار وباكثير ونجيب محفوظ - الذين تخرجوا حديثاً آنذاك من الجامعة - على نشر أعمال أدبية ترتقي بمستوى الرواية العربية فنياً وفكرياً، فأتجهوا إلى كتابة الرواية التاريخية برؤية جديدة تجعل من أعمالهم الامتداد المتطور لما كتبه أبناء الجيل السابق لهم أمثال محمد فريد أبو حديد وعلي الجارم وربما محمد سعيد العريان - إلى حد ما. كانت الرؤية الجديدة التي قرروا الانطلاق منها هي الاهتمام بتوظيف موضوعات التاريخ لخدمة الواقع المعاصر، وتصوير الشخصيات التاريخية من خلال رؤية إنسانية واسعة تخرجهم من إطار الواقع التاريخي الضيق إلى آفاق عالمية، ذلك لأنهم رأوا أن بعض أعمال الجيل السابق لهم لم تكن أكثر من إعادة صياغة التاريخ بشكل فني دون محاولة تقديم تفسير جديد لأحداثه، أو طرح رؤية خاصة تعبر عن رأي المؤلف في أحداث معاصرة.

ونتيجة لهذا الطرح الجديد حققت الروايات الثلاث الأولى: (أحمس بطل الاستقلال) للسحار، و(زادوييس) لنجيب محفوظ، و(سلامة القس) لباكثير التي أصدرتها «لجنة النشر للجامعيين» ترحيباً نقدياً وثقافياً ممتازاً، خاصة وأن جمهور القراء قد تعرف عليها، وأعجب بها عندما نشرت مسلسلة في (مجلة الثقافة) آنذاك، إذ فازت روايتا باكثير ونجيب محفوظ بـ «جائزة السيدة قوت القلوب الدمرداشية»، فاقتهما قيمة الجائزة، وحصل كل واحد منهما على أربعين جنيهاً، وكانت تلك أول جائزة يحصل عليها باكثير ونجيب محفوظ في تاريخهما الأدبي، ثم فازا بعد ذلك - بالاشتراك أيضاً بـ «جائزة

(١) أبلغني بذلك الأستاذ سعيد جودة السحار في حديث شخصي معه بمكتبه بدار مصر للطباعة بالقاهرة في ١٩٩١/٨/٢٥م، وأيضاً راجع: السحار، عبد الحميد جودة، صور وذكريات، مكتبة مصر، القاهرة، ص ٣٨.

وزارة المعارف» سنة ١٩٤٤م باكثير عن رواية (وإسلاماه)، ونجيب محفوظ عن رواية (كفاح طيبة)، ثم قررت رواية (وإسلاماه) على طلاب المدارس ابتداءً من سنة ١٩٤٥م لعدة سنوات في مصر وبعض البلاد العربية.

ومع أن السحار ونجيب محفوظ قد بدأ إنتاجهما الروائي بموضوعات من التاريخ الفرعوني إلا أنهما سرعان ما انفصلا عنه حيث استقر نجيب محفوظ على استلهاهم الواقع الاجتماعي والسياسي المصري الذي بنى عليه شهرته، وانضم السحار إلى باكثير في إبداع أدب عربي جديد يستلهم التاريخ والواقع المعاصر من منظور التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون، ويؤكد ذلك شهادة نجيب محفوظ لزميله باكثير والسحار بعدم تأثرهما بظروف الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) واستمرار وضوح الرؤية الفكرية والتفؤل لديهما حين قال: «حينما أنشأ عبد الحميد السحار لجنة النشر للجامعيين وفرج بها أزمة النشر لدى جيلنا، كنا خمسة من جيل واحد بدأنا نشر أعمالنا معاً: السحار، وعادل كامل، وأحمد زكي مخلوف، وباكثير، وأنا... وحينما أعود بذاكرتي إلى هذه السنوات أجد أن باكثير والسحار لم يداخلهما أي شك في قيمة إنتاجهما ووجوب استمرارهما فيه، فقد كانا ممتلئين بالإيمان والتفؤل. أما الثلاثة الآخرون - عادل كامل وزكي مخلوف وأنا - فقد كنا نعاني من أزمة نفسية غريبة جداً طابعها التشاؤم الشديد، والإحساس بعدم قيمة أي شيء في الدنيا...»^(١).

ويبدو أن الاتجاه نحو استلهاهم التراث الفرعوني بقصد التعبير عن رؤية معاصرة كان رغبة مشتركة، فقد سبق باكثير زميله إلى هذا الاتجاه في مسرحياته حين كتب سنة ١٩٣٨م أولى مسرحياته في مصر بعنوان (أخناتون ونفرتيتي) ونشرها سنة ١٩٤٠م. وقد أثار اختياره موضوعاً من التراث الفرعوني يستهل به حياته الأدبية في مصر استغراب بعض النقاد. ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن عجباً، فقد وصل باكثير إلى مصر سنة ١٩٣٤م، وعلى الساحة الثقافية والفكرية طائفة من أدبائها يدعون إلى ارتداد مصر إلى فرعونيتها، وينكرون عليها عروبتها وارتباطها بالعرب. وبالمقابل يقف ضده تيار عروبي

(١) دوازة، فؤاد، عشرة أدباء يتحدثون، (حوار مع نجيب محفوظ) سلسلة كتاب الهلال، عدد (١٧٢)، يوليو ١٩٦٥م

ينعى على مصر اعتزازها بتاريخها الفرعوني ويدعوها للاكتفاء بتاريخها العربي بعد الإسلام. وقد رأى باكثر في كلا الرأيين تطرفاً لا يمكن قبوله، فليس من المنطق أن تحمل مصر على تناسي حضارتها الفرعونية القديمة التي أذهلت العالم، وصارت تراثاً إنسانياً مشتركاً يُعنى به العلماء في جميع الشعوب. والحل الذي وصل إليه، أنه من حق الشعوب العربية - وفي مقدمتها مصر - أن تفخر بتاريخ حضاراتها القديمة التي أصبحت تركة إنسانية تضاف أمجادها التاريخية القديمة إلى رصيد أمجاد الأمة العربية المسلمة وارثة هذه الحضارات كلها، وصاحبة الأرض التي قامت عليها هذه الحضارات (١) بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فهو يميل أن الفراعنة هاجروا إلى مصر من جنوب شرق الجزيرة العربية في زمن عاد (٢). كان هذا هو السبب الذي جعله يبدأ حياته الأدبية في مصر باستلهام التراث الفرعوني، وينعطف نحوه تلك الانعطافة الكبيرة في عدد من مسرحياته، وهو ما سنتوقف عنده في المجلد الخاص بتلك المسرحيات.

أما اتجاهه في رواياته إلى التاريخ العربي الإسلامي المرتبط بمصر، فيعود إلى إيمانه العميق بأهمية قيادة مصر لأمتها العربية، وهو رأي رسخ في يقينه قبل وصوله إلى مصر، وعبر عنه في نتاج مراحل حياته السابقة. فمصر هي أرض الكنانة وموئل العروبة وانطلاقة الإسلام ومركز القيادة في معارك التحرير والانتصارات الكبرى فلا عجب أن يقول:

صلوات الله يا مصر عليك
وتحيات ملايين القلوب
كلها ينبض تحناناً إليك
ويضدّيك على رغم الخطوب

يا رجاء العرب من قاص ودان

(١) باكثر، علي أحمد، فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مكتبة مصر، ط٣، ١٩٩١م، القاهرة، ص ٤٣.

(٢) نجده يقول في أول قصيدته له بعد وصوله إلى مصر نشرت في صحيفة البلاغ في ٢٩/٤/١٩٣٤م أشار فيها إلى رأي للإمام محمد رشيد رضا:

(فرعون) من (عاد) تفرع جذمه قد قاله في الباحثين (رشيد)

ويُصدّر مسرحيته (أخناتون ونفرتيتي) بهذا البيت من إحدى قصائده يخاطب به المصريين:

أبوكم أبي يوم التفاخر يعرب وجدكم فرعون أضحى بكم جدي

ولهذا كتب (وا إسلاماه) مذكراً بنصرة الإسلام وتحرير الأرض بقيادة مصر، وكتب (سيرة شجاع) محذراً قادة مصر من الخلاف داعياً إلى الوحدة وجمع شمل العرب والمسلمين، وهي فكرة ترددت كثيراً في شعره ومسرحياته فضلاً عن رواياته.

وهكذا نجد أن مخالفة باكثير لزميليه نجيب محفوظ والسحار اللذين اتجها في باكورة أعمالهما الروائية إلى استلهام التاريخ الفرعوني، تعود إلى إلحاح فكرة أهمية قيادة مصر لأمتها العربية والإسلامية في تلك المرحلة الحرجة من تاريخها وهي الفترة التي سبقت حرب فلسطين وقيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م.

سلامة القس ١٩٤٣م:

كانت ردة فعل أخلاقية لشاب قادم من مجتمع محافظ في حضرموت صدمته قصص الحب الحسي التي تصورها الروايات والأفلام السينمائية العربية، فلا عجب أن يختار باكثير من التاريخ الإسلامي هذا الموضوع الذي يمثل الحب العذري العفيف في قصة سلامة، وليس أدل على المضمون الأخلاقي الذي أراد باكثير التعبير عنه من تصديره هذه الرواية بالآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْمَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف).

فكان معنى هذه الآية محور الصراع الذي انتقل بأحداث الرواية من المثالية الرومانسية إلى الواقعية الإسلامية التي تعترف بضعف الإنسان لأنه جزء من بشريته، وتعدُّ حياته صراعاً من أجل المكانة التي كرّمه الله بسببها فجعله خليفة في الأرض. ولعل هذه المعالجة الواقعية للقصة الرومانسية في هذه الرواية كانت وراء اختيار إخراجها للسينما في فيلم غنائي يحمل عنوانها طارت به شهرته، ولا يزال (فيلم سلامة) يعرض إلى اليوم.

وا إسلاماه ١٩٤٥م

وبعد النجاح الكبير الذي حققته (سلامة القس) روائياً وسينمائياً كتب باكثير أشهر رواياته على الإطلاق، وهي رواية (وا إسلاماه) التي صدرت عن لجنة النشر للجامعيين سنة ١٩٤٥م، وكان لا بد أن يكون موضوعها استجابة لمتطلبات الطرف التاريخي الحرج الذي تمر به مصر والأمة العربية والإسلامية، إذ كانت مصر تعيش اضطرابات سياسية

وصراعات داخلية تفت في عضدها وتشل حركتها عن قيادة أمتها، وكانت الحرب العالمية الثانية في أتونها وبقية الأوطان العربية والإسلامية تتساقط في يد الاستعمار بالقوة وبالغدر معاً، وفلسطين مهددة بالسقوط في أيدي اليهود.

في هذه الظروف العصبية وجد باكثر نفسه ملزماً - بصفته أديباً عربياً مسلماً صاحب رسالة - أن يتجه للتاريخ العربي الإسلامي - وليس للتاريخ الفرعوني الذي لن يسعفه بما يريد - ليذكر بزعامة مصر لأمتها يوم رفعت لواء الجهاد بقيادة زعيمها المظفر قطز، فانتصر المسلمون على الصليبيين في «فارسكور» وعلى التتار في «عين جالوت»، الانتصار الشهير الذي أعاد للعرب والمسلمين هيبتهم وأنقذ أوطانهم من السقوط في أيدي أعدائهم.

كانت هذه الرواية صرخة تحذير ودعوة استنهاض للجهاد ضد المستعمر الغربي والمستوطن اليهودي. وكعادته في تصدير كل عمل له مسرحي أو روائي بأية قرآنية يكون معناها محور الصراع الأساسي في العمل الفني، فقد صدر (وا إسلاماه) بأية قرآنية ذات صلة بمضمونها.

فازت رواية وإسلاماه بـ «جائزة وزارة المعارف»، ثم قررتها على طلاب المدارس الثانوية، فكانت أول رواية لأديب غير مصري تقرر على طلاب المدارس في مصر^(١)، وقد عرف الجيل الذي تخرج من المدارس الثانوية في الفترة من ١٩٤٥ م حتى قيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ م مؤلف (وا إسلاماه) من خلال هذه الرواية، فضلاً عن التلاميذ الذين درسوا على يديه في هذه المدارس^(٢).

ورغم النجاح الكبير الذي حققه الإخراج السينمائي لهذه الرواية إلا أنه لم يكن راضياً عن الخاتمة السينمائية التي خالفت الأصل، إذ كان يرى أن جلنار - التي قامت بدورها الممثلة لبنى عبدالعزيز - كان ينبغي أن تعيش بعد إصابتها لكي يتم الانتصار من خلال

(١) حصل على الجنسية المصرية سنة ١٩٥١ م قبل الثورة بسنة، وبعد سبعة عشر عاماً من إقامته بمصر.

(٢) تخرج من كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٢٩ م، وحصل على دبلوم معهد التربية سنة ١٩٤٠ م وعمل مدرساً بمدرسة الرشاد الثانوية بالمنصورة لمدة سبع سنوات، وفي سنة ١٩٤٧ م انتقل للقاهرة وعمل مدرساً بمدرسة الدواوين الثانوية لمدة سبع سنوات أخرى، وفي سنة ١٩٥٥ م عُيِّن في وزارة الإرشاد ثم في وزارة الثقافة حيث شغل وظيفة مدير الرقابة على المصنفات الفنية إلى وفاته.

إحساس درامي فاجع، وذلك عندما تسقط جريحة فيترك قطز أرض المعركة ويحملها بين يديه إلى الخيمة وهو يقول لها: «واحببتاه...»، فتصيح به قائلة: «لا تقل واحببتاه، بل قل: وإسلاماه»^(١).

وقد نال باكثير سنة ١٩٦٣ م «وسام العلوم والفنون» من الطبقة الأولى، و «وسام عيد العلم» اعترافاً بمكانته الأدبية. وفي السنة نفسها أيضاً تم إنتاج (وإسلاماه) إلى فيلم سينمائي عالمي باللغتين العربية والإنجليزية، وذاع صيت هذا الفيلم ولا يزال يُعرض اليوم في المناسبات الدينية وفي أوقات الأزمات.

ليلة النهر ١٩٤٦ م

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها سنة ١٩٤٥ م يستريح باكثير عن مواصلة سيره على درب الرواية التاريخية، فيلتفت إلى موضوع معاصر، ويكتب رواية (ليلة النهر) التي نشرت سنة ١٩٤٦ م لتكون الرواية الوحيدة التي كتبها في موضوع اجتماعي، حيث استوحى قصتها من حياة الموسيقار المصري فؤاد حلمي مستعيناً بالمذكرات التي استعارها من صديقه الحميم مراد السعيد، كما ذكر في مقدمة الرواية.

ويبدو موضوع هذه الرواية اليتيمة للوهلة الأولى خارجاً عن اهتمامات المؤلف التي تصب معظمها - وحتى العاطفية منها - في إطارات مستوحاة من التاريخ أو الأسطورة. ولكن بتأمل حيثيات موضوع (ليلة النهر) نجده قريباً كل القرب من منطقة ظلت خضراء في قلبه.. منطقة ظل الحب فيها يتدفق جنباً إلى جنب مع مشاعر الحزن والشجن، إذ لم يستطع تعاقب السنين وكر الأيام أن يوقف هذا التدفق طوال حياته.

رواية (ليلة النهر) قصة حب نقي رعاها الصبا بطهره وبراءته، ونماه الشباب باندفاعه وطموحه الوثاب، حب تفجر في قلب شاعر وموسيقي شاب، فأجاد بشعر رقيق رائع، صاحبه موسيقى في ألحان أخّاذة، ولكن الشاب يصطدم بعقبة كأداء تحول بينه وبين الزواج من محبوبته، إذ إن خالها القيم على شؤونها يفضل عليه شاباً آخر ليس له من المؤهلات إلا أنه ابن أحد أصحاب الثراء وحملة الألقاب! وهذا الجزء الذي هو محور

(١) حوار مع باكثير أجراه محمد السيد شوشة، مجلة الجيل الجديد ١٦/٤/١٩٦٢م، القاهرة، راجع كتابنا: علي أحمد باكثير من أحلام حضرموت إلى هموم القاهرة، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، ١٩٩٧م، ص ٤٦.

الصراع وعصب المأساة في هذه الرواية يمس وتراً حساساً في حياة المؤلف الشخصية، فما قصة فؤاد حلمي مع محبوبته إلا إسقاط - بطريقة أو بأخرى - لما تعرض له باكثر نفسه في حضرموت عندما أراد الزواج من الفتاة التي أحبها وعشقها منذ صباه، والفرق بينهما أن المؤلف استطاع الزواج في النهاية من محبوبته وبطل الرواية لم يستطع، ذلك لأن باكثر يفقد محبوبته بعد زواجه منها بقليل، ويظل حياته كلها يعاني - بوفاء عظيم - من مأساة موتها المبكر، أما بطل (ليلة النهر) فيموت حزناً وكمداً بعد أن يفقد محبوبته التي أكرهت على الزواج بغيره.

وظلت مأساة باكثر الشخصية مع المرأة التي حصل عليها بالحب، وفقدتها بالموت في حضرموت، تلح عليه في كثير من أعماله، ابتداء من القصة الكاملة لهذه المأساة في مسرحيته الشعرية (همام أو في بلاد الأحقاف) ١٩٣٣م أولى مسرحياته مروراً بمسرحية (أخانتون ونفرتيتي) ١٩٣٨م الشعرية باكورة أعماله في مصر، وانتهاءً بأخر مسرحياته على الإطلاق وهي مسرحية (عاشق من حضرموت) ١٩٦٩م الشعرية التي كتب معظمها، وحال الموت بينه وبين إتمامها.

الثائر الأحمر ١٩٤٨م

وفي سنة ١٩٤٨م كتب باكثر روايته التاريخية السياسية (الثائر الأحمر)، وصدرت سنة ١٩٤٩م عن لجنة النشر للجامعيين، وقد أثارت جدلاً واسعاً لخطورة موضوعها وجرأته، فقد اتخذ من تاريخ الحركة القرمطية والظروف السياسية والاجتماعية التي أدت إلى ظهورها وسيلة للتحذير من انتشار الشيوعية في العالم العربي والإسلامي، فلم تظهر الحركة القرمطية إلا نتيجة للظلم الاجتماعي الذي ساد دولة الخلافة الإسلامية آنذاك، وانتشار نظام الإقطاع الذي حوّل صغار الفلاحين إلى عبيد لا يكادون يحصلون على ما يسد الرمق، في حين استأثرت فئة محدودة من الناس بتمركز في عاصمة الخلافة بغداد بالمال والأرض والإنسان.

ومن خلال معاناة أسرة حمدان قرمط يعرض لنا باكثر كيف يؤدي التطرف في الظلم إلى تطرف في المطالبة بالعدل، إذ ينضم حمدان إلى جماعة متطرفة «جماعة القдахين» تعمل تحت ستار الدين، وتعد بالعدل والمساواة والملكية المشاعة، ويصبح حمدان قرمط

فيما بعد زعيماً لهذه الحركة، ويحتل مدينة مهيماً باذ شرق الكوفة ويجعلها دار هجرة لأتباعه الذين يحلمون بتطبيق العدل الشامل، ولعل باكثير أراد أن يقول - آنذاك - إن هذا العدل الشامل الذي وعدت به الحركة القرمطية في ظل الإباحية وتفكك الأسرة والملكية المشاعة لكل شيء لو تحقق للقرامطة آنذاك فإنه سيحقق للشيوعية. وقد صدق الرؤية فكرياً وأبدع فنياً، إذ وصلت الشيوعية في العالم كله إلى النتيجة نفسها التي وصلت إليها الحركة القرمطية في التاريخ وفي الرواية.

ويحق لنا أن نتساءل: عن السبب الذي دفع باكثير إلى كتابة هذه الرواية قبل ظهور الثورات والأنظمة الاشتراكية واستفحال أمر الأحزاب السياسية والشيوعية في العالم العربي ١٩؟ والجواب في رأيي أن هناك ثلاثة عوامل كانت وراء اختيار باكثير لموضوع هذه الرواية في ذلك التوقيت:

أولها: أن سنة ١٩٤٨ م كانت من أصعب السنوات في تاريخ مصر والعالم العربي بل والإسلامي، ففي هذه السنة منيت الجيوش العربية مجتمعة بهزيمة ساحقة انتهت بقيام دولة إسرائيل في فلسطين.

وثانيها: حدوث الصدام الدموي بين جماعة الإخوان المسلمين وحكومة الملك فاروق الذي انتهى بحل الجماعة واغتيال زعيمها الإمام حسن البنا.

وثالثها: تفاقم أزمات النظام السياسي في مصر وتسلب الإقطاع على رقاب الفلاحين، الأمر الذي أدى إلى إيجاد بيئة خصبة لظهور المنظمات السرية ومنها الشيوعية للترويج لمبادئها، حتى انتهت الأمور في (٢٣ يوليو ١٩٥٢ م) بنجاح حركة الضباط الأحرار في قلب نظام الحكم.

ولا عجب في ذلك فقد كان باكثير يكتب بحاسة المسلم الصادق المخلص لدينه وأمتة، وهذا ما جعله لا يكتفي فقط بوضع رؤية لنهاية الشيوعية والرأسمالية، بل وضع أيضاً تصوراً للانتصار العدالة الإسلامية التي قدمها حلاً بديلاً لكلا النقيضين. وهذا ما أشار إليه العنوان التوضيحي على الغلاف «قصة الصراع بين الرأسمالية والشيوعية في الكوفة». وكان هذا العنوان الفرعي موجوداً على الطبعة الأولى التي صدرت في القاهرة

عن «لجنة النشر للجامعيين»، واختفى هذا العنوان من الطبعة الثانية التي صدرت بعد الثورة عن «نادي القصة»، سنة ١٩٥٢م.

وقبل وفاته بسنوات قليلة نشر باكثير النص الكامل من (الثائر الأحمر) عن دار الكتاب اللبناني في بيروت وحمل عنواناً فرعياً على الغلاف أكثر شمولاً في التعبير عن فكرة الرواية، وهو: «قصة الصراع بين الرأسمالية والشيوعية والعدالة الإسلامية»، وصدرت منه الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤م.

سيرة شجاع ١٩٥٥م

وفي سنة ١٩٥٤م وبعد الثورة المصرية عادت فكرة قيادة مصر لأمتها العربية والإسلامية تلح عليه مرة أخرى، فكتب رواية (سيرة شجاع) ونشرت سنة ١٩٥٥م، وتدور أحداثها في الفترة بين أواخر حكم الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية. يشير باكثير إلى أهمية اختياره لموضوع هذه الرواية: أنه كان هناك في هذه الفترة احتكاك بين مصر وسوريا، انتهى في مناقشة قضية الزعامة في مواجهة الخطر الصليبي. هل تكون العاصمة في دمشق أو في القاهرة؟ فكان الإجماع أن تكون القاهرة مركز القيادة. ويعل ذلك بقوله: «إن القاهرة كانت مركز القيادة والزعامة للعالم العربي في عهود كثيرة مثل عهد أحمد بن طولون الذي امتد سلطانه إلى شمال أفريقيا وبرقة وطرابلس، ووصلت فتوحاته إلى محاربة الروم. وكانت الزعامة الفعلية وقتئذٍ في القاهرة رغم أن الخلافة كانت في بغداد. وفي عهد الفاطميين بسطت مصر زعامتها على دول كثيرة منها المغرب واليمن، ولم يكن يمنعها من زعامة جميع دول العربية إلا المذهب الفاطمي الشيعي الذي حورب أشد المحاربة حتى في مصر نفسها، إلى أن استقلت مذهبياً وأصبحت سنية بعد الدولة الفاطمية»^(١).

وقد قدم باكثير في (سيرة شجاع) نموذجاً من الصراع على السلطة في التاريخ الإسلامي، حيث تتصير في النهاية - بعد سلسلة من الأحداث - الوطنية على الخيانة، والإيتار على الأثرة، ولا يكون إلا البقاء للأصلح، وذلك من خلال تصوير فني هادف للصراع بين

(١) المرجع السابق ص ٤٦.

الوزيرين شاور وضرغام في عهد الخليفة الفاطمي العاضد، وهو الصراع الذي استعان فيه أحد الطرفين بالأجنبي عدو العرب والمسلمين للانتصار على أخيه المسلم.

ولاشك أن اختيار باكثير لموضوع هذه الحقبة من تاريخ مصر ليس ببعيد عما شهدته مصر والعالم العربي من أحداث سياسية كان في مقدمتها الصراع على السلطة في مجلس قيادة الثورة المصرية الذي حُسم سنة ١٩٥٤م بانتصار جمال عبد الناصر وإقصاء محمد نجيب. وقد حملت هذه الرواية بين طيات صراعاتها أحداثاً تاريخية فيها إسقاطات على الحاضر قابلة لشتى التفاسير، انطوت من مغبة الخلاف وتأثيره على زعامة مصر للأمة العربية.

وبما أن العمل الفني لا يمكن أن ينفصل تماماً عن عواطف ومبادئ ومواقف صاحبه - مهما ادّعى الموضوعية - فإن القارئ والدارس لا بد أن يجد ما يفيد في فهم إسقاطات النص والنسيج الروائي لأحداثه من خلال علاقة باكثير بالأطراف المعنية من رجال ثورة ٢٣ يوليو، والظروف الشخصية التي دعت له لكتابة هذه الرواية. ولعل أحد مفاتيح هذا الفهم الإهداء الذي كتبه في بداية الرواية «إلى جمال عبد الناصر ورفاقه الأبطال»، والدلالة التي تحملها دعوته في نهاية الإهداء أن تكون أحداث هذه الرواية «عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن أذكر». وقد كان جمال عبد الناصر عبر له عن إعجابه برواية (وا إسلاماه).

وقد سرى هذا الإعجاب إلى بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة، فقد كان كمال الدين حسين من المعجبين بأدب باكثير، وبرواية (وا إسلاماه) على وجه الخصوص، وبعد أن أصبح وزيراً للتربية والتعليم (١٩٥٤-١٩٥٥) بعث لباكثير سنة ١٩٥٥م برسالة إعجاب وتقدير يطلب منه أن يؤلف رواية أخرى^(١) تقرر أيضاً على طلاب المدارس، فكانت رواية (سيرة شجاع). وقد ذكر باكثير في مسودة خطاب بقلمه كتبه أوائل سنة ١٩٥٥م، يقول فيه: «لما انتهيت من تأليف قصتي سيرة شجاع رأيت أن أتقدم بنسخة منها إلى السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم إذ ذاك لما كان يسبغه من عطف علي، ومن اهتمام بنتاجي القصصي منذ ألفت (وا إسلاماه)، فكان يشجعني أن أكتب قصة قومية مثلها، فلما ألفتها رأيت أن أقدمها إليه تحية له، ورأت الوزارة بعد دراسة الكتاب أنه يصلح للقراءة الصيفية للطلبة فقررت»^(٢).

(١) حصلت على الخطاب ضمن أوراق باكثير التي احتفظت بها أسرته في القاهرة.

(٢) مسودة خطاب موجه إلى مسؤول لم يذكر اسمه.

ومع ذلك فقد ربطت باكثير باللواء محمد نجيب معرفة شخصية منذ سنة ١٩٤٢م من خلال زوجته المصرية التي تمت بصلة قرابة لأسرة محمد نجيب، وتوثقت هذه الصلة بعد الصدى الوطني الكبير الذي أحدثه تمثيل مسرحيته (مسمار جحا) سنة ١٩٥١م، التي كانت صرخة جريئة في وجه الاستعمار الإنجليزي لمصر، وبعد نجاح الثورة استقبل الرئيس محمد نجيب باكثير وحيّاه على وطنيته، وقال له عبارة ظلت ترن في أذنه طويلاً، «لقد قدمت رأسك قبلنا يا أستاذ باكثير بأعمالك الوطنية قبل الثورة»^(١) وقد أشار زكي طليمات مخرج المسرحية إلى خطورة هذا العمل الوطني في ظل الوجود الإنجليزي بمصر في مقدمة طبيعتها الأولى وقال: إنه كان مشفقاً أن يقاد باكثير إلى السجن بسببها^(٢). وقد وجدت بين برقيات التعازي التي وصلت أسرة باكثير بعد وفاته برقيتين من اللواء محمد نجيب من سجنه بالمرج يدل محتواهما على متابعتها إنتاج باكثير يقول في إحداهما:

«السادة آل باكثير: أشاطركم قلبياً، فقد خسرنا والعروبة والإسلام عالماً جليلاً وبطلاً عظيماً، فالرحمة للفقيد والصبر الجميل للجميع».

الفارس الجميل ١٩٦٥م

وكفَّ باكثير عشر سنوات بأكملها عن كتابة الرواية، وانشغل بكتابة الكم الهائل من المسرحيات التي أنتجها في هذه الفترة، ويبدو أنه كان لا يلجأ لكتابة الرواية إلا عندما يرى أمته تعيش احتقاناً يخاف عليها فيه من الانفجار، فيجد في رحاب الرواية سعة لا يجدها في المسرحية، فينطلق محذراً أو مبشراً من خلال إسقاط أحداث التاريخ المشابهة على الواقع المعاصر، ولهذا جاءت روايته الأخيرة (الفارس الجميل)، التي نشرها في ثلاث حلقات بمجلة القصة المصرية سنة ١٩٦٥م، على علاقة بحالة الاحتقان التي كانت تعيشها الأمة العربية في تلك الفترة، والتصنع الذي أصاب علاقة مصر ببعض أخواتها

(١) روت ذلك لي ربيبة باكثير السيدة إجلال محمد لطفي ابنة زوجته المصرية في منزلها في القاهرة بتاريخ

١٩٩٢/٨/١٢م.

(٢) راجع تقديم زكي طليمات للطبعة الأولى من مسرحية (مسمار جحا)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥١م، ص ٦.

العربيات، ومجموعة من الأزمات انتهت بهزيمة ١٩٦٧م، التي ضاعت بها فلسطين بأكملها وأراض عربية أخرى.

في (الفارس الجميل) يرسم باكثير صورة أخرى للصراع من أجل المصالح الشخصية والتوسع في السلطة على حساب وحدة الأمة ومصحتها الحقيقية. ويختار موقفاً من تاريخ الصراع بين بني أمية وبني هاشم، بين خلفاء معاوية بن أبي سفيان ويمثلهم عبد الملك بن مروان، وخلفاء علي بن أبي طالب-رضي الله عنه- ويمثلهم عبد الله بن الزبير وأخوه الفارس الجميل مصعب بن الزبير بطل الرواية. والإسقاط المعاصر في هذه الرواية يختلف عن الروايات السابقة التي كانت الأحداث فيها يتجاوز الأطماع الشخصية والصراع على السلطة إلى الجهاد من أجل دحر عدو أجنبي يهدد العرب والمسلمين والانتصار عليه كما في (وا إسلاماه)، أو الاستعداد له كما في (سيرة شجاع)، أو تفنيد فكرة خطرة تهدد عقيدة الأمة وتفسد كيانها كما في (الثائر الأحمر).

أما في (الفارس الجميل) فالإسقاط يصور صراعاً كانت الأمة العربية تعيشه في السنوات التي أعقبت ثورة اليمن سنة ١٩٦٢م إلى هزيمة ١٩٦٧م. لهذا اختار باكثير من التاريخ ذلك الموقف المؤلم الحرج حيث كان عبد الملك بن مروان يزحف من بلاد الشام ليخضع العراق التي كان مصعب بن الزبير والياً عليها باسم أخيه عبد الله بن الزبير، والجانب المأساوي الإنساني الذي صورته هذه الرواية محاولة مصعب وعبد الملك الابتعاد عن المواجهة العسكرية التي تحتمها الأطماع السياسية، فضلاً عن كونهما أخوين عربيين مسلمين فهما صديقان حميمان منذ الطفولة، ولكنهما لم يستطعا الانتصار على أطماع الأنظمة السياسية من أجل الأخوة والصداقة ومصلة المسلمين!

في هذه الرواية لم يغير باكثير منهجه في الاختيار من التاريخ فحسب بل غير أيضاً في وسائل التصوير الفني مستفيداً من التقنية الحديثة التي وصلتها الرواية العالمية، وربما لهذا السبب ختم أحداث (الفارس الجميل) بنهاية مفتوحة، وربما أيضاً لأن الأحداث السياسية المعاصرة آنذاك - لم تكن قد وصلت إلى نهاية - فكان استدعاء الحدث التاريخي المشابه تحذيراً من مغبة النهاية التي خشي منها باكثير على أمته، وقد حدثت سنة ١٩٦٧م.

ومن هذا كله نخلص إلى أن روايات باكثر التاريخية تدل على أنه عندما تعامل مع التاريخ كان على وعي تام بأن دور الأديب يختلف عن دور المؤرخ، فالمؤرخ لا يكتب إلا ما حدث بالفعل، أما الأديب فيقدم تفسيراً لما حدث من خلال توجيه جديد لسير الأحداث والشخصيات التاريخية. وبهذا يُعدُّ باكثر من الناحيتين الفنية والفكرية - في نظر كثير من النقاد المنصفين - رائداً في توجيه الشكل الفني للرواية العربية التاريخية توجيهاً جديداً ينطلق من التصور الإسلامي الصحيح بكل أبعاده الوطنية والقومية والإنسانية.

